طفلاً وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدي أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان، فتم ما أرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته في (١٥) محرم (سنة ٤٨٨).

وفاة المقتدي:

في منتصف المحرم (سنة ٤٨٧) توفي المقتدي باللّه فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه.

٢٨ ـ المستظهر باللّه

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر باللّه واستمر خليفة إلى أن توفي في ١١ ربيع الآخر (سنة ٥١٢) فكانت خلافته (٢٤ سنة) وثلاثة أشهر و(١١ يوماً) وكانت سنه حين توفي (٤١ سنة) وستة أشهر وستة أيام.

حال الممالك الإسلامية في عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين إلى (سنة ٤٨٠) ثم من بعده ابنه علي إلى (سنة ٥٣٧).

وبإفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس إلى (سنة ٥٠١) ثم يحيى بن تميم إلى (سنة ٥٠٩) ثم علي بن يحيى إلى (سنة ٥١٥).

وبمصر من الفاطميين المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى (سنة ٤٩٥) ثم الآمر بأحكام اللّه علي المنصور بن المستعلي إلى (سنة ٥٢٤).

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح (سنة ٤٩٨) ثم فاتك بن جيش إلى (سنة ٥٠٣) ثم منصور بن فاتك إلى (سنة ٥١٧).

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٥٠٢) ثم عبد اللّه بن حاتم إلى (سنة ٥٠٤) ثم معن بن حاتم إلى (سنة ٥١٠) ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر باللّه من خيار بني العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير

مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا ... لما مددت إلى رسم الوداع يداً
وكيف نملك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق في مهوى الهوى قدداً
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي ... من بعد هذا فلا عاينته أبداً

تولى ملك العراق في خلافة المستظهر باللّه ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد اللّه الحسين بن نظام الملك ولم يكن فيه شيء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الأستاذ علي بن أبي علي القمي وكانوا جميعاً سواسية في النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة. والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك في شرابه وقد ذهب الجميع إلى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها. وكان ذلك مجرتاً عم السلطان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يكون طالباً السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعد تتش للأمر عدته فعاد (سنة ٤٨٧) بجنوده التي أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ثم أرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لمّ بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه في موضع قريب من الري فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك (سنة ٤٨٧) واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد اللّه بن نظام الملك الذي استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيداً في بلاغة النظم والنثر ولما هيأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فإن أم السلطان كانت متداخلة تداخلاً كثيراً في سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالاً جزيلة في الوزارة فأجيب إليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله، وتوجه إلى محمد بن ملكشاه

الذي كان ملكاً على أران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره في مهماته ثم سلم إليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران في شرذمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال إليه العساكر فمالوا إليه.

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه في وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقي كله بل على الإسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من (سنة ٤٩٢) إلى (سنة ٤٩٧) خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال. والإفرنج تحركوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون.

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت. وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً وأما خراسان فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له في جميعها وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد ـ فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه في الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام في أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمداً في السبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهي الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فإنه توفي في ثاني ربيع الآخر (سنة ٤٩٧).

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فإن عمه محمداً ما عتم أن قدم إلى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده، وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن اللّه حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان.

لم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى في دولة آل سلجوق هي.

١ ـ الوزارة.

٢ ـ استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفي.

٣ ـ الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء.

٤ ـ الإشراف وعرض الجيش.

قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد: قد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده وإنما يقتني منها ما يراه موافقاً لمقصوده فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه زاك وعرقة كريم ومجده قديم وطريقه في الكفاية مستقيم!؟ لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار فإنهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمته. ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير. واستمر ملك محمد هذا إلى (سنة ٥١١) حيث توفي في (٢٤) ذي الحجة وعمره إذ ذاك (٢٧ سنة) وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً وقد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد ابن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد في (١٣) محرم (سنة ٥١٢).

ولم يقم الخليفة المستظهر باللّه طويلاً بعد وفاة محمد بن ملكشاه فإنه توفي في (١٦) من ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم إلا أقل من أربعة أشهر.

كان في حياة المستظهر باللّه أحداث عظيمة في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب فأما في الشرق فظهور الباطنية وعيثهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما في الغرب فأغارت الفرنج على البلاد الإسلامية وبدأت الحروب الصليبية ولا بد أن نشير إلى كل من الحادثتين بكلمة

لنبين كيف كان ابتداؤهما فإن استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم.

الباطنية

لما نجح الفاطميون في إقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحي الفرات دار في خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التي جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سراً ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة مهروا في إبداعها. وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة ودرجته تلي قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاماً مسنوناً. ومن البلاد التي اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم إليها: البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه، وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار، فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر فأجابه لا حاجة إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فإذا نقل إلينا صاحب الخبر خبراً وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم. فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم (١٨ رجلاً) بمدنية ساوة وهي مدينة بين الري وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم. ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوه كان مقيماً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتيل منهم. ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجاراً فقتلناه به. وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهي بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت به قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركماني فوصل إلى قاين وأخبر بالخبر، فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهي قلعة بناها السلطان ملكشاه.

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش فقدموه عليهم

وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثاني وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فلقي بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة ألموت وتحصن بها وهي من نواحي قزوين في موضع حصين. ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفي فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكراً فحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعاً بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها.

ودخل في حوزتهم أيضاً بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التي جعلوها حصوناً لهم ومعاقل. تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأماني الجميلة التي يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب. وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه الناس إلى الارتكاس في عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التي هي مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه ابن كرمانشاه بن قاورت بك. ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس في كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان في إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس في هذا المصاب رأي ولا تدبير.

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم دخول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو في طاعة السلطان محمد أخي بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمد انبسط جماعة منهم في العسكر واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد

من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا في المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان في قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم. ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسي مدرس النظامية ورفيق الغزالي في الطلب والتلمذة لإمام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة في العلم فأطلق.

وفي (سنة ٤٩٤) جمع الأمير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعاً كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الإسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجيق فخرب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم (سنة ٤٩٧) بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفي بزغش بعد عوده من هذه الغزاة.

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعياً إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند والشام وغيرها من البلاد فوصلوا إلى جوار الري فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً.

وفي (سنة ٥٠٠) رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فإن أمره استفحل بالقلعة التي ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسي أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانيين بركياروق وأخيه محمد

فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهي متسلطة على سرير ملكه فخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلاً يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للدخول التي يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق وإنما يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علي ابن عبد الرحمٰن السمجاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فإنهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فإنهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع وطالت المناظرة في ذلك ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصاً من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلجّ حينئذ السلطان في حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعه خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي فيه فأشير على السلطان بإجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خلنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم وأن من أتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل إليهم من الإقاتة ما يكفيهم يوماً بيوم فأجيبوا وكان قصدهم المطاولة انتظاراً لفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان بإخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان وهي لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس وأن يقيم باقيهم في ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة ألموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل

جماعة إلى الناظر وإلى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذي بقي بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جداً وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقيل إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذي ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين رجلاً فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من خرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيراً فترك أسبوعاً ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رؤوسهما إلى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة.

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة ألموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة ألموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم فسير إليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آية وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها إلى ألموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار إلى قلعة ألموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم مع جودة رأي وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهراً يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجري على كل رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصرة لهم بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وإن لم يمكن المقام ولا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه

العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم.

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم.

خطر المغرب:

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحاً وافياً فإنها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من (سنة ٤٩٠) إلى (سنة ٦٩٠) أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الإسلامية الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التي تفرعت عن السلاجقة ودول الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم.

امتد سلطان السلاجقة إلى بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما إليهما وأخذا بمخنق الروم فقصدوا كل حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقي لهم من الأملاك في آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قليج أرسلان داوود بن قتلمش (٤٨٥ ـ ٥٠٠).

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب أرسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك.

وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلي باللّه أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ ـ ٤٩٥).

كان بيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني فاستمر في حوزته إلى (سنة ٤٨٩) وهي السنة التي سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء المغتصبين.

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب في السبب الذي حدا بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم: إن هذه الحملة كانت في الأصل موجهة إلى شمال إفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ ـ ٥٠١) وكان رجار الصقلي قد قام في عهده واستولى على صقلية وحارب تميماً في

عقر داره حروباً كانت بينهما سجالاً ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا وصلوا إلي أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي أيضاً فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد في تخليصه أعظم أثراً وأبقى فخراً.

وقال فريق آخر إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلاً إلى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين.

وقال فريق من غيرهم إن ملك الروم هو الذي دعا الفرنج إلى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فإنهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل.

والذي عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التي أثارها في أوروبا بطرس الراهب بمساعدة الباب أوربانس الثاني هي التي هاجت أنفس الإفرنج لهذه الإغارة.

وكل هذه الأسباب لا يبعدها العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضاً والإفرنج يميلون إلى جعلها حرباً دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية في ذلك العصر.

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذي فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد إلى أوروبا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعاً واستعان بسلطان البابا أوربانس الثاني الذي كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا في أوروبا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية في قلوب المسيحيين فنجح في ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع في هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها في (٢٥ أغسطس سنة ١٠٩٦) (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح في مسيرها لأنها لم تكن ذات نظام عسكري فعاثت في الأرض فساداً فقاومها البلغاريون والهونغريون وأفنوا كثيراً منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج أرسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هي الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى قامت على أثرها حملة أخرى وهي الحملة الثانية يقدمها غودا فرودي بوليون دوق دي لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الإيطالي.

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التي كانت من أعمال قليج أرسلان وعددهم عظيم جداً فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوماً وفي نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذي أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً في مسيره ففني كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد في العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك.

صار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذي بذل له الإفرنج مالاً وأقطاعاً وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التي كانت للروم لا نطلب سواها وإنما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا. سار الإفرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها.

كان البيت المقدس في تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فإنهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالي فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركماني واستناب فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة وهو الذي تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها. حصروا بيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه في يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان (سنة ٤٩٢) ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساؤوا معاملة أهله وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه.

ولما تم للإفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافر ليكون ملكاً هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامي قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم.

وضع غودافر قانوناً لإدارة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فإنه توفي في (١٨ يوليو

سنة ١١٠٠) فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافر وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودوين دي بورغ ملكاً على الرها وسار هو إلى حاضرة ملكه وهو المعروف في التواريخ العربية باسم برديل. هكذا وجدت مملكة أفرنجية في وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هي تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين؛ المصريون يناوشونهم من الجنوب والأتراك من الشرق. ولم تكن المملكة الإفرنجية واحدة في البلاد التي استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وأنطاكية والرها وغير ذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس. وسنتكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الإفرنج.

٢٩ ـ المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد باللّه بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده (١٦) ربيع الآخر (سنة ٥١٣) (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل في يوم الأحد (١٧) ذي القعدة (سنة ٥٢٩) (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥).

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه في ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقي وعظيمه. فلما توفي أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الخطباء يذكرون السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفي أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محمود أرسل إلى عمه سنجر وفداً معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال إن ولد أخي صبي وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الري بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودي قد استهان بالعسكر السنجري لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوي على شيء أما سنجر فكان واقفاً في القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال: إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا، وهجم بفيلته على قلب محمود هجوماً شديداً فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده. ورد الخبر إلى بغداد في عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فإنه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما